



بسام الكلباني

خطابات الإصلاح العربي.. بين التنظير والتطبيق

إن حلم العالم الآمن الذي تسوده الديمقراطية والقانون في طريقه للتحقق، عن طريق القوة الأمريكية المحررة التي بدأت من البوابة العراقية وستشمل المنطقة التي تشكل استثناءً وحيداً في مرحلة اكتمال مسار الحرية. بهذه الكلمات اختتم الكاتب الأمريكي - المحسوب على تيار المحافظين الجدد - ريتشارد بيرل كتابه الأخير «نهاية الشر». وما زال الشارع العربي يعيش في مرحلة الصراع الفكري والنفسي في مدى مصداقية النوايا الأمريكية، فمن أين ينتج القرار الأمريكي وأين تصنع النوايا الأمريكية، وماذا كان الباعث نحو إعادة هيكلة الشرق الأوسط بهندسة أمريكية؟ حول هذا الموضوع، سنحاول مقارنة مقال لعبد الله السيد ولد أباه في مجلة التسامح بعنوان «الخطاب الإصلاحية الجديد: الخلفيات الاستراتيجية والإشكالات النظرية».

اعتمادها من مجموعة الدول الثماني الصناعية، وتتأسس هذه المقاربة على خلفية فكرية واستراتيجية مزدوجة. المقاربة العربية- العربية والتي توزعت إلى اتجاه رسمي عبرت عنه وثيقة الإصلاح الصادرة في قمة تونس والتي تبنت أهدافاً ومبادئ مرجعية توطر مشروع الإصلاح ولكن من دون تحديد لآليات وسبل تنفيذه، ومع ترك مساحة واسعة للدول العربية في الإصلاح الداخلي، والتي انتهت بتأجيل حسم ملف إصلاح النظام الإقليمي العربي إلى القمم القادمة، واتجاه آخر شعبي عبرت عنه عدة مبادرات رعتها منظمات مدنية والذي انعكس ليتشكل على هيئة وثائق صادرة من ندوات مميزة عقدت في عدة عواصم عربية، وهي الأخرى لا تخرج من أهداف الاتجاه الرسمي ومطالبات في الإصلاح السياسي والمؤسسي الشامل.

المقاربة الفكرية الساعية لتأطير مشروع الإصلاح بالتركيز على الجانب الديني والثقافي، والتي ظهرت بشكل لافت في كتابات عديدة صدرت لسنوات من أقلام عربية وأجنبية، تتمحور في عمومها حول هدم مستنقع العوقاات الفكرية والثقافية والمقاربات الإصلاحية التي تهدف إلى مد جسور التفاهم الإقليمي والدولي ابتداءً من تجديد الخطاب الديني وانتهاءً بالإصلاح الفكري والسياسي.

لطالما كانت قطيعة القارئ العربي للآداب الموروثة غير ممنهجة وبلا أسس ومعايير، فعلى الرغم من التحديات التي واجهت كبار الكتاب العرب في الجانب السياسي والحريات؛ إلا أن رفاة الطهطاوي لم يكن غائباً في الجانب الإصلاحي السياسي، حيث يفند كتابه «تخليص الأبريز» الصادر في عام 1834م، والذي فسّر الحرية بأنها مبدأ العدالة، وتوجيه بين معيار الحرية في دلالته الليبرالية الحديثة ومقولة العدالة في المرجعية الإسلامية.

بيد أن الإصلاح في الساحة العربية قد يواجه في أولى مسيرته مخاضاً عسيراً في الإجابة على شكل الإصلاح وإطاره: فما هو سقف هذا الإصلاح، وهل هو شامل يتجاوز نظام الحكم والحريات العامة ليشمل بذلك هياكل الدولة وبنياتها المركزية وتركيبية المجتمع المدني وأرضيته الاقتصادية والثقافية، أم أنه لا يتعدى الأدبيات والتنظير الفكري بحيث لا يتعدى مفهومه إلى أبعد من الحالة الديمقراطية والتعددية؟



دوراً إسلامياً متطرفاً ومنعزلاً عن الأمة العربية والإسلامية. وللشروع في مقاربات الإصلاح، وقبل الوقوف على أجدته ورهاناته، يتعين التنبيه إلى مفهومين سادا الأدبيات العربية خلال القرن الماضي:

أولهما: مفهوم «التمدن» الذي هيمن بشكل مُلفت على الخطاب النهضوي في حقبة الأولى في مؤلفات عديدة للطهطاوي وخير الدين التونسي والأفغاني ومحمد عبده والتي عُنيّت بتغيير المفهوم السائد للتمدن إلى مفهومه الحالي الذي يُعنى بمنظومة التنوير وبما تقوم عليه من قيم التقدم والعقلنة والحرية والتحديث الثقافي والمؤسسي، وثانيهما: مفهوم «الثورة» الذي ساد في الأدبيات الأيديولوجية العربية بعد الحرب العالمية الثانية على وجه الخصوص مع التيارين القومي واليساري، والذي قام بإعلان القطيعة الكاملة والشاملة والقلب الجذري لإعادة بناء فكر الأمة وتعديل أوضاعها بناءً على المرتكزات اليسارية والقومية السائدة في ذلك الوقت، والتي شملت الفئات الرئيسية في المجتمع كالتخويبية والمتعلمين والحقوقيين والسياسيين وكذلك الطبقات العمالية الأخرى.

يذكر التاريخ العديد من المقاربات الإصلاحية والتي تمتاز بحسب مرجعيتها ومصادرها، وأبرزها ثلاث: المقاربة الأمريكية التي قدمها الرئيس الأمريكي بوش في مناسبات متتالية قبل أن تتحول إلى مبادرة دولية بعد

يرى بيرل أن مراكز صنع القرار في الولايات المتحدة الأمريكية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر يتلخص في فكرتين أساسيتين:

أولاً: أن مصدر العنف والإرهاب ليس اقتصادياً أو سياسياً بل هو في أعماقه فكري، ولذا فإن الحرب على الإرهاب يجب أن تكون حرب أفكار لتدمير القيم الليبرالية التحديثية إلى النسق الإسلامي من خلال تشجيع عملية إصلاح عميقة لهذا الدين على غرار التجربة المسيحية في العالم الغربي التي أدت إلى إحياء عصر جديد في الدول والإمبراطوريات التي احتضنت سابقاً أكبر الأمم الراديكالية والاستبدادية.

ثانياً: أن مصدر العداء للولايات المتحدة راجع لأسباب داخلية ذات صلة بتركيبة الحقل السياسي في الدول العربية- الإسلامية التي تهيمن عليها حكومات استبدادية، تنهم أمريكا بدعها ضد شعوبها، الأمر الذي أدى بطبيعة الحال إلى التشكيك في النوايا الأمريكية قاطبة والمقاطعة الجريئة للفكر الليبرالي بإتهامه بالعداء للمسلمين.

يؤكد الكاتب الموريتاني عبدالله السيد ولد أباه في مقاله المعنونة «الخطاب الإصلاحية الجديد: الخلفيات الاستراتيجية والإشكالات النظرية»، بأن ضمان مصالح الولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة - الشرق الأوسط - مرهون بتشجيع إصلاحات ديمقراطية حقيقية في العالم العربي- الإسلامي، وهكذا أصبح مطلب الإصلاح الثقافي والسياسي حجر الزاوية في العلاقات الأمريكية مع بلدان الشرق الأوسط، حيث انعكس حوار الإصلاح بقوة في الأدبيات السياسية والفكرية العربية - الإسلامية وفق اتجاهات متباينة وردت فعل متضاربة.

ومما لا شك فيه أن الشرق الأوسط يشهد اليوم وفاقاً تاريخياً بين قوى الغرب مع قوى الشرق العربي، كالاتفاق الإيراني مع الولايات المتحدة والدول العظمى، ولا سيم أن اتفاقاً كهذا سيسهم في تشجيع الإصلاحات الديمقراطية على صعيد محلي وإقليمي، ويفتح أبواباً واسعة لمناقشات ثنائية بين الدولتين، الأمر الذي يحتم استبدال الخطابات التفسيرية والعدائية من الجانبين وبروز حليف مماثل في منطقة الشرق الأوسط على غرار الكيان الصهيوني، وسيسهم ذلك الأمر كثيراً في بلورة روح التفاهم بين الدول التي انتهجت غطاءً علمانياً وسطياً وأخرى يسارياً مع الإمبراطورية الفارسية التي هي الأخرى انتهجت